



يتمتع بشار الأسد بموهبة فريدة، هي القدرة على اكتشاف الأسوأ من بين جميع الخيارات المطروحة، والأخذ به دائماً ومن دون تردد. وهو، لذلك، لا يُخرج نفسه من ورطةٍ حتى يدخلها في ورطةٍ أكبر. وهو يشبه في ذلك من يتخطّب في رمال متحركة. كلما "بلغت" أكثر زاد غرقه. هكذا بدأ مسيرته، أو سيرته "الظافرة" بزج مئات من المثقفين والنشطاء المسلمين لربيع دمشق في سجونه سنوات طويلة، بدل أن يسمع منهم، ويتمعن قليلاً في كلماتهم ومطالعهم، ويطمئنّهم ولو بوعودٍ كاذبة. ثم قرر اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق، رفيق الحريري، لخوفه من انقلابه عليه في لبنان، وهو الذي كان قد وضع نفسه في خدمة الدبلوماسية السورية، حتى اتهم بأنه كان يعمل بمثابة وزير الخارجية الفعلي للنظام الأسد، بمقدار ما كان يدافع عن تثبيت حكم الأسد الصغير لدى الأوساط السياسية الدولية، الأميركيّة والأوروبيّة.

وdem كل الجسور التي كانت تربط سوريا بغيرها، أو أشقاءها العرب الذين وصفهم بأنصار الرجال، معتقداً بقوته الجديدة التي استعارها من إطاء الإيرانيين ودعمهم حكمه، في الوقت الذي لم تكن طهران تخفي، بأيٍّ شكل، طمعها بضم سوريا إلى الهلال الشيعي الذي كانت تُعدّ له، وتحدّث عنه في صحفتها علناً، والتي تحاول اليوم تجسيده على الأرض السورية مادياً، وتتنافس عليه حلفاءها من أطراف النظام نفسه، ومن خارجه، بعد أن تمكّنت من السيطرة على جزءٍ كبيرٍ من القرار السياسي، وموقع القوة والنفوذ السورية.

وعلى المنوال ذاته، أطاح الأسد صداقته مع تركيا التي سعت إلى التوسط بينه وأطراف المعارضة، لاحتواء الحركة الاحتجاجية، بداية انتفاضة 2011، بعد أن وهب أنقرة ثمن صداقتها المستحدثة قبل بضع سنوات التوقيع على اتفاقية التجارة الحرة التي قضت عملياً على آخر آمال السوريين في بناء قاعدة صناعية محلية، وعلى ما تبقى من الصناعة الخفيفة السورية. وتخلّى عن سيادته على قراره كاملاً، عندما سلم أمره للعسكرية الروسية، وفرّط بجزءٍ مهمٍ من تراب بلده، في

الساحل السوري، حتى يضمن الجسم العسكري للصراع السياسي الداخلي، ويعلن نصره الحاسم والنهائي على شعبه، بدل أن يفتح الحوار معه، ويعيد النظر بسياسات الهيكلة الاقتصادية والاجتماعية الكارثية. ولم يتردد في تدمير بلده، وتشريد الملايين من أبنائه، مستخدماً جميع أسلحة الدمار الشامل وغير الشامل، والوقوف بصلفٍ لا يمكن وصفه في مواجهة المجتمع الدولي، الداعي إلى إيجاد تسوية سلمية للأزمة التي فتحتها الحرب على الانتفاضة، بمشاركة رجاله، أملاً بأن يحفظ له الحل العسكري سلطاته وصلاحياته شبه الإلهية.

و قبل بأن يستنفد جميع موارد البلاد المادية والمعنوية، ويقطّع قاعدة اقتصاده، ويُقْطَع علاقات سوريا العربية والدولية، كي لا يضطر إلى التنازل، ولو ذرة واحدة، عن سيطرته العسكرية والأمنية، أو يتراجع عن حلم التمسك بسلطنة مطلقة، أصبح ينظر إليها باعتبارها حقاً شخصياً مقدساً و خالصاً لا يمكن لأحد، لا من السوريين ولا من العرب ولا من الدول الأجنبية، إبداء رأيه فيها، أو في أسلوب استخدامه لها، ولا في الوسائل الوحشية التي طورها لترويع السوريين، وفرض إرادته عليهم، وتأكيد تصميمه على إدلالهم وإخضاعهم وتركيعهم من دون رحمة.

وها هو يجد نفسه اليوم وجهاً لوجه أمام حصيلة أفعاله: لا دولة ولا مجتمع منظم ولا إدارة مدنية ولا اقتصاد ولا موارد وإمكانات، وأهم من ذلك كلّه، من دون قوة عسكرية وأمنية مستقلة خاصة به "يسحق" بها "أعداءه"، كما كان يحلم ويفكر دائماً، حتى يحولهم إلى هباء لا يستحقون اعترافه بوجودهم. ومع عجز حماته الإيرانية عن إسعافه، بعد العقوبات القاسية التي فرضت عليهم، وإنزال العقوبات بحرسهم الثوري الذي وضعه واسطنطن على رأس قائمة الإرهاب، وبعد رفض الروس إنقاذه بسبب تطرف موقفه، ها هو يقود سوريا نحو الانهيار الاقتصادي والسياسي المحتوم، ويترك شعباً من ربع مليون نسمة في حالة من التفكك والفوضى والانحلال. هل سيقبل الأسد ما كان قد رفضه منذ ورث الحكم عن والده، وتحول إلى أداة في يد الأجهزة الأمنية الحاكمة فعلياً، ويتجاوز حده على السوريين، وإرادة الانتقام منهم حتى النفس الأخير، أم سيتمسك بحصارهم، بمساعدة حلفائه، حتى وهو في حالة حصار لا فكاك منه؟

أمام الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة التي تعصف بسوريا، بسبب الحصار والعقوبات الدولية، يقع الأسد في قصره من دون حركة، ويشير على أدواته باستعادة خطاب "المؤامرة الكونية"، وخيانة الحلفاء والأصدقاء، وتنظيم حفلات الرقص والغناء على طوابير وقود السيارات التي أصبحت رمزاً لتهاوي نظام سياسي واجتماعي وفكري كامل.

لن يستوعب بشار الأسد ما حصل له بسهولة، فما كادت تمر أسابيع قليلة على احتفائه وأنصاره بالنصر المؤزر، وسحق الأعداء من السوريين والعرب الضالعين في التآمر معهم، حتى هددت وسائل إعلامه الدول العربية التي أرادت أن تصدق كذبة الانتصار ذاتها على الإرهاب، وتعيد فتح سفاراتها وتطبيع علاقاتها مع النظام، بأن على قادتها أن يصطفوا في الطابور، لتقديم اعتذارهم لسوريا الأسد، وهو وحده الذي يقرر ما إذا كان سيعفو عنهم، أم يستمر في القطيعة معهم معاقبة لهم. وفي رواية أخرى من روايات النصر، لم يتردد بعض مسؤولي النظام الكبار، وقد أخذتهم الحال بعد إعلان الولايات المتحدة هزيمة "داعش"، والقضاء على "دولة الإرهاب"، في المطالبة بمحاكمة واسطنطن والعواصم الأوروبية جميعاً بتهمة دعم الإرهاب.

أمام المآذق والورطات والمطبات التي صنعتها بنفسه، بسبب خوفه على سلطنة يدرك تماماً أنه مفتضبها وسارقها، وهي أكبر بكثير من قدرة استيعابه، لم يكن الأسد يعرف وسيلةً أخرى، لمواجهة الاستحقاقات المأساوية لخياراته سوى الهرب، كالفار الملاحق، من نفقٍ إلى نفقٍ لعله ينجح في تجنب مصيره المحتوم، وليس من المؤكد أن أزمة نظامه الراهنة التي تضنه على حافة الانهيار سوف تدفعه إلى التفكير في مغادرة المسرح الذي غالباً ما لعب عليه كطفلٍ شرير، يبحث عن تدوين أقرانه، مما يبحث وزير خارجيته عن "إغراقهم بالتفاصيل"، ولم يستوعب يوماً واحداً معنى الحكم السياسي، وحمل المسؤولية وقيادة شعب نحو غایات إنسانية وإيجابية. السؤال: هل يسمع الروس الذين يستخدمونه مطية لتحقيق أهدافهم، وتقع عليهم

المسؤولية الأولى في منع كارثة جديدة في سوريا، أن يقوّض أحالمهم، ويتسبّب في خسارتهم رهانهم السوري والشرق الأوسطي؟

في بداية الاحتجاجات الشعبية، لم يكن كبار مسؤولي النظام يتوقفون عن تردّيد كلمة "خلصت"، بمعنى انتهت المسألة، أو سوف تنتهي خلال أيام أو أسابيع. وربما جاء اليوم دور المعارضة لتردّد العبارة ذاتها: خلصت مع نظام لم يعد له من مقومات النظم السياسية أثر يُذكر. ولكن بعكس النظم العربية الأخرى التي وجدت داخل مؤسساتها وصفوف مسؤوليتها من يمدّ، ولو إصبعاً، إلى الجمهور التائراً، لا يوجد في نظام الأسد من يجرؤ على غير تخوين المعارضين واتهام الشعب والتشكيك بوطننته، بينما يُحيل الجبن وانعدام الإرادة والقرار مصير النظام بأكمله إلى الأقدار.

المصادر:

العربي الجديد